وليد الهودلي:
"مدفن الأحياء"

ناقشت الندوة كتاب "مدفن الأحياء- شهادات حية من المعتقل"، لوليد الهودلي. صدر الكتاب عن بيت الشعر الفلسطيني في رام الله العام 2004، وأشرف على إخراجه فنيًّا الشاعر محمد حلمي الريشة، ووقع في 165 صفحة من الحجم المتوسط، ويحوي الكتاب شهادات لبعض الأسرى المرضى حول تعذيبهم بدل علاجهم.

حذام العربي:

لم اقرأ لوليد الهودلي من قبل. والحقيقة أيضاً أنني لم أقرأ من أدب السجون إلا القليل. ولكن ما قرأت في "مدفن الأحياء"، حتى وجدت

نصوصًا تداخلت بها عناصر التوثيق بعناصر النص الأدبي الإبداعي، أحيانًا في حركة إبداعية راقصة، كما في نص علاء الدين البازيان "زيارة إلى بحيرة طبريا" (ص97). وأحيانًا في حركة لولبية واضحة المعالم، كما في نص علي عباس البياتي "عراقي في سرداب السبع" (ص87). وأحيانًا في أسلوب مباشر وفج، كما في نص شهادة جديدة من مدفن الأحياء "عملية جراحية بدون تخدير" (ص131).

أرى أن إنتاج النصوص الأدبية كمهنة، قد يفضي أحيانًا بصاحبه إلى شيء من السوقية التجارية، والحاجة الماسة إلى الإبهار وسرق الأنظار بالألاعيب التقنية واللغوية وغيرها، إلى أن تصبح أقرب إلى خط إنتاج في ورشة أو مصنع، منها إلى الشعر أو الرواية أو غيرها، من أصناف الإنتاج الأدبي المختلفة. لكن إنتاج النصوص، لتوثيق تجربة حياتية، عادة ما يأتي نتاجًا يتيمًا وحيدًا منفردًا، وأيًّا كان هذا، فإنه يأتي للمحافظة على التجربة بالدرجة الأولى، ويحوي في ثناياه الكثير من اللمسة الإنسانية المباشرة، فيه يسكب صاحب النص بعضًا من روحه خوفًا من ضياع التجربة، وكأنه يقول بهذا للقاصي والداني، للعدو وللصديق، من هنا لن تمرّوا. ويرفع على قمة السارية إعلان حياة، وإرادة تخليد.

ما دام صاحب النص متشبثًا في سرده لحكايته التوثيقية، فهي مع تضافر عوامل أخرى، وأهمها عنصر الزمن، ستصبح جزءًا من التاريخ، وهذه حاجة للشعوب تمامًا، كما هي حاجة الأفراد.

للأفراد حاجة إنسانية أكاد أقول غريزية، للتواصل، وللتشابك الاجتماعي، ولسرد حكاياتهم العادية، فما بالك إذا كانت تحتوي على عناصر الإثارة الدرامية. وفي نهاية المطاف لكل سجين حكاية، وفي حياة كل سجين عناصر درامية بارزة، تستحق وبجدارة أن تحتل موقعًا بين رفوف المكتبات، فما بالك إذا ما حَسُنَ سبكها.

إلا أن حاجة الشعوب إلى مثل هذه النصوص، تبقى أكثر إلحاحًا، وذلك للمحافظة على الإرث الحياتي الحقيقي، ومحاولة منع تزوير التاريخ، أو ترك خانات فارغة فيه، تستقطب مَنْ، وما هبّ ودبّ ليملأها. كما أن تراكم هذا الإرث كمًّا وكيفًا، فيه ما يضمن للأجيال اللاحقة إمكانية الاستفادة من العبر الواردة في مثل هذه النصوص، وما يقيها شرّ الوقوع في مثل هذه التجربة مجددًا، إذا ما أفردت لهذه النصوص مكانة لائقة، في وجدانها ووعيها، وإذا ما أجادت قراءة هذه النصوص، وأفرزت حيزًا لدراستها النقدية.

إنها في نهاية المطاف، تجربة لتوثيق جزء من تجربة شعب، في مرحلة معينة من مراحل صيرورته، وإنها جديرة بوقفة إمعان وتدقيق.

إنها لعبة شد الحبل بين الإنسان الفرد والمجتمع ككيان هلامي، غير محدد المعالم. بين الحاجة إلى التفرد والتمايز وضرورة الاندماج في المجموع. بين التطرف في تضحية المصلحة الشخصية، وفي نكران الذات، في سبيل مصلحة عامة، والتطرف في الانتهازية واقتناص الفرص في سبيل المصلحة الشخصية.

بين موت إنسان، ونهاية الإنسان، أي إنسان، وتطلعات الشعب إلى الخلود.

أنها لعبة صراع البقاء، الإنسان الفرد في كفة، يقابلها صراع البقاء للمجتمع، للشعب، في الكفة الأخرى. وهؤلاء أصحاب حكايات مدفن الأحياء، لم يحسنوا مسك العصا من الوسط، ولا هم من أصحاب الوسطية أصلاً. لقد رجحوا كفّة المجتمع والشعب على كفّتهم الخاصة الفردية.

وعليه، فالكتاب بنصوصه جدير أن يشغل حيزًا في خزانة وثائق الشعب، وفي جوارير وجدانه.

وليس سرًّا أن هذا الكتاب، مثله كمثل كل كتاب، اصطلح على تصنيفه في باب أدب السجون، يشمل نصوصًا تساهم في تثبيت بعض الرمال المتحركة للذاكرة الجمعية الفلسطينية، التي دأب ويدأب الكثيرون على تشظيتها، كما أنه يرسي دعائم مهمة لاستمرارية المشروع الوطني

الفلسطيني، ويزيح الغبار عن قطعة فسيفساء، ولو كانت صغيرة جدًّا في المشهد الفلسطيني، ولكنها متألقة حقًّا، على الرغم من النكوص الشديد في المشهد العام.

لستُ بصدد تقييم أو مراجعة نصوص "مدفن الأحياء"، ولكن ما لفت نظري في هذه النصوص، تلك الحالات التي اختارها كاتب النص، معظمها عن سجناء مرضى، أو نزلاء المشفى التابع للسجون، أو مَن احتاج منهم للمعالجة الطبية.

قرأت في هذه النصوص شيئًا ما يشبه "وصيّة" الإنسان الراقد على فراش الموت. شيئًا يشبه "حكمة الحياة"، كما في النص عمر الخطيب، "المشعوذة" (ص23).

لمست في بعض النصوص إيقاعًا إنسانيًّا يسابق الزمن. الإنسان يريد ترك بصمته الخاصة، قبل أن تعصف به الرياح والأعاصير، كما في نصّ ربحي هرشة "أمام الضمير المفقود" (ص111). شاهدت في بعض النصوص الحكاية تتكثف لتصبح إرثًا يتحول إلى مستقبلٍ ناطقٍ وحَيّ، كما في نص سلطان العجلوني "أسد شرقي النهر" (ص164).

أحببت التوثيق بالاسم لأصحاب الحكايات، وبالتشبيه والكنية لمضمون حكاياتهم، فهذا من أبسط حقوقهم الواجب صيانتها.

جدير بالإشارة موقف كاتب هذه النصوص، إذ اختار أن يتوارى خلف أبطال النصوص وحكاياتهم.

بعض الملاحظات العينية التي استرعت اهتمامي:

- استعمال الكاتب لمفردة "متسللين"، على سبيل المثال لا الحصر (ص 159). فيها إسباغ الشرعية على مفردة لغوية من الأدبيات السياسية الصهيونية، ومساهمة في إنجاح "تسللها" إلى الوجدان الفلسطيني.

- لم أستطع مواكبة ما قصده الكاتب، بإملاء "الإسرائيلي" متقطعة {الـ"إسرائيل"ي} . مثال غير حصري (ص153).

- سأل الكاتب على لسان أحد أبطاله، عدة أسئلة (ص90)، حول ما آلت إليه الأوضاع الفلسطينية، قبيل مؤتمر مدريد، ولاحقًا أوسلو وتداعيات الأوضاع، ثم أضمر ولم يفصح... هذا حقه، بطبيعة الحال، ولكن، كقارئة غير مُلمّة في هذه المواضيع والتساؤلات، كنت أتمنى على من ضرب بعرض الحائط تميزه الفردي، واستبدله بالصالح العام، ألاّ يخشى في تسجيله لموقفة لومة لائم.

- وأكثر من هذا أقول، إنها ليست مسألة اختيار أو مزاج توافقي. في هذا الزمن الأغبر، لقد أصبح واجبًا وطنيًّا مُلِحًّا على الفلسطيني، كل وأيّ فلسطيني، سجينًا كان في السجون الإسرائيلية أم في المناطق المحتلة العام 1967، في مخيمات اللجوء أو في كافة أصقاع الشتات، أن يجاهر

برأيه، أن يقول كلمته، أن يشارك في نسج شبكة حياة آمنة، كريمة وعزيزة الجانب لمستقبل هذا الشعب، ذلك أن الأنواء "العربية- الأخوية" تواكب، وتشد أزر الأنواء "الدولية والإقليمية" في تقاذفها "للسفينة الفلسطينية"، وتقوم بعملها هذا بكل عنف وشراهة القراصنة المتمرسين في المهنة، المتحفزين للانقضاض، على الفريسة.

نائلة جويلس:

إنها لمصادفة غريبة حقًّا، أن تقرأ كتابًا ما لتلتقي خلال أيام قليلة بإحدى شخوصه. دعوني أقصّ عليكم ما حدث معي: قابلته صدفة ليخبرني خلال حديثنا أنه كان معتقلاً لما يقارب الثلاثة عشر عامًا، فأصابني الذهول، وخفت أن أسأله شيئا عما قرأت، فيبدأ بسرد سلسلة العذاب التي مرّ بها، لكنني وجدت نفسي أخبره بأنني أقرأ كتاب "مدفن الأحياء" لوليد الهودلي، الذي يحمل في طياته شهادات حية من المعتقل، وأخبرته أنني عندما قرأت أول قصتين منه، أصابني ألم يعتصرني كلما أردت الرجوع إليه، لكنني تداركت الأمر بسرعة عندما أخطأت في التعبير، وسارعت إلى الاعتذار منه، إذ إن كلمة قصة لا تليق أبدًا بوصف ما احتواه الكتاب، فلو كانت قصة لقلت إن الكاتب قد أسهب في الخيال فعلًا، لكنها أحداث واقعية نقلها الكاتب إلينا على لسان أصحابها. عندما

أخبرته عن الكتاب، خرجت من أعماقه آهات كثيرة، محملة بآلام السنين التي قضاها في المعتقل، وأغمض عينيه كأنه يسترجع شريط حياته في المعتقل، ولم يقل شيئًا، صمت قليلاً، واغرورقت عيناه، وانقبض وجهه، وأحسست أن الكلمات بدأت تخرج من فمه بصعوبة تشق طريقها إلى أذني محملة بكل العذابات التي في الدنيا التي يحملها في صدره، لتصب في أذني وتصل إلى أعماقي سيوفًا تمزق قلبي، فهو لا يزال يعاني من أزمة، هكذا أخبرني، تلك الأزمة تزوره كل حين، تثقل كاهله، يجهش بالبكاء كأنه طفل صغير، يتوقف الزمن للحظات طويلة، لا يستطيع الحديث حينها، فالغصة تملأ حلقة، فيكتفي بوضع إصبعه على شفاهه ليطلب ممن حوله أن يكفوا عن سؤاله عما أصابه، تلجم صوته، فبات عاجزًا أن يطلقه، وعاجزًا أن يحرر الآهات والصرخات التي يتمنى أن يطلقها علّها تسحب معها تلك الآلام الرابضة على صدره، والمحتقنة في شرايينه إلى الأبد.

أتدرون؟ إن هذا الإنسان الذي أمضي ثلاثة عشر عامًا في المعتقل، خرج ليجد نفسه محملاً بكل آلام السجناء والمعذبين والمحرومين والأسر الثكلى، ومحملاً بأحلامهم التي تراودهم ليل نهار، ومحملا بعبء ثقيل تزيد وطأته في لحظات السعادة التي يقضيها في الحياة، ليقف ضميره في المرصاد في كل مرة ليذكره أين كان.

لشدة غبائي، سعدت جدًّا عندما بدأ يخبرني عن السهرة الجميلة التي قضاها في أحد المطاعم الفاخرة في دولة أجنبية، هناك مع أصدقائه أو زملائه في العمل. لست أذكر. كان الجو رومانسيًّا إلى أبعد الحدود. روعة المكان الممزوجة بضوء الشموع، والموسيقى الهادئة التي تتسلل بهدوء إلى أذنه، والصحبة الجميلة، ضحكاتهم وهمساتهم. لم يستطع أن يحتمل ذلك، فقد زارته الأزمة دون استئذان، والصور أخذت تتلاحق في ذهنه وتعصف به من كل جانب؛ الأسرى والمحرومون والأسر الثكلى.. أين هم من ذلك؟ الغصة الخانقة وقفت في حلقه لتمنع تسرب صوته وآهاته من جوفه. رمى بوجهه بين يديه وأخذ يجهش بالبكاء، لعل تلك الدموع تغسل ضميره الذي بات يؤنبه على لحظات السعادة التي يقتنصها بين الحين والآخر، وكأنها جرم اقترفه بحق كل أولئك الذين يحملهم معه أينما ذهب.

يقولون إن الحياة لا تتوقف على أحزاننا. أجل أوافق، فهي تمضي غير آبهة بنا، هذه هي الحياة، لكنها تتوقف بالنسبة إليه كلما زارته الأزمة. المفارقة الوحيدة بين شاهدي وشخوص الكتاب، هي أن شاهدي خرج من المعتقل ليصف لي ما حدث معه في معترك الحياة بعد الإفراج، فبات معتقلاً داخل نفسه التي تصارعه بين الحين والآخر، أمّا شخوص الكتاب، فهي لا تزال تعبق تحت وطأة السجن والسجان، تتجرع الألم

المضني الذي صب كل وابل غضبه على بدنهم الهزيل، الذي يحتوي على مختلف الأمراض، ليقابلها القسوة والجبروت، وبراءة الأطباء والممرضين من شرف المهنة والقسم، ليتبرؤوا، أيضًا، من اللقب الذي حملوه من ملائكة الرحمة ومخففي آلام المريض، ليحل محله السخط والنقمة على المعتقلين، والتفنن في أساليب التعذيب... فإلى متى؟

بعدها جرى نقاش مطول شارك فيه: جميل السلحوت، محمد عليان، خليل سموم، د. وائل أبو عرفة، إبراهيم جوهر.

(القدس 24/ 5/ 2007)